

في عالم التربية

بعض عوامل الضعف في تكوين الفرد وطرق علاجها

في الأسرة والمدرسة ^(١)

بقلم مفضرة صامب المعالي الدكتور محمد بهري الدين برطاك بك

وزير المعارف الأسبق

سادتي :

بينما كنت أطالع منذ أيام إحدى المجلات الزراعية استرعى نظري ما قرأت لخبير زراعة القصب من قوله : إن الفلاح المصري وصل في بعض الشؤون الزراعية بفضل ماثرتة وارتقابه لزراعته درجة من الاتقان لم يصل إليها العلم الحديث ، فالتجربة علمته من طرق الزراعة ما يأتي بأحسن الثمرات .

قد يدهش المرء لتلك العبارة ، ولكنه إذا فكر أن الحاجة تفتق الحيلة ، وأن الضرورة أم الاختراع ، عرف كيف تستطيع الجهود المتجمعة أن تصل إلى ما لا يستطيع العلماء أنفسهم .

هذه شهادة العلماء عن نتيجة ما وصلنا إليه بفضل عنايتنا بنباتنا وزراعته ، فهل نحن وصلنا إلى بعض تلك النتيجة فيما يتعلق بترية أبنائنا وبناتنا ؟
بالأسف كلا !

اغش أي مجلس من مجالس الفلاحين تجدهم يبحثون في أوان الزراعة

(١) هذه هي المحاضرة التي أقيمت في معسكر الرواد بأرض المدرسة السعيدية في ٢٢

فبراير سنة ١٩٣٥

في العلام لنجاحها، وفي طرق ربيها، وكيفية معالجتها، وأحسن الوسائل لإكثار الانتاج، وطرق مكافحة الآفات الزراعية وغير ذلك. واغش بعد ذلك مجالس القاهرة تجدهم يتناقشون في السياسة، وفي الدرجات، وفي أسباب تفضيل زيد على بكر، وغير ذلك من المسائل التي تشغل الرأي العام. ولكنك يندر أن تجد مجلساً يتناقش في طريقة معاملة الأطفال، وفي أحسن السبل لتربيتهم وتقويم المعوج فيهم؛ وكثيراً ما تسمع الناس ينسبون العيب إلى المدرسة، والتقصير إلى الحكومة، ويندر أن تجد من يذكر أن الأسرة هي المدرسة الأولى للطفل، وأن للطفل ذاكرة كالمرآة ينعكس فيها كل ما يراه، وينطبع أثره في نفسه، وينتج نتيجة في أخلاقه وتكوينه إذا ما بلغ شاباً ثم رجلاً.

فهل فكرنا نحن، في تربية أولادنا، في أن نحجم عن ارتكاب النقائص أمامهم، وأن يكون الأبوان نموذجاً حسناً لهم؟ أظن لا! ولعل جمهرة الآباء والأمهات عندنا لا يشعرون بأن عليهم واجباً لأولادهم، ولا بأن الأمثلة السيئة التي يراها الطفل ستلازمه حتماً مدى الحياة. ألسنا نرى كثيراً من الآباء والأمهات يلقنون أولادهم الكذب، ويطلبون فيهم روح الغيرة والحسد بما يقصون أمامهم من الأحاديث، ويلقنونهم من الأوامر؟

فكم من الآباء والأمهات يتنبهون إلى أن كثيراً من القصص العائلية والمشاحنات الفردية لا يصح ذكرها أمام أبنائهم وبناتهم حتى لا يفقدوا روح العطف نحو أهلهم، وحتى ينشأوا طاهرين مما يثقل ماضى أهلهم، فيبدلوا حياة أسعد من حياتهم، ويعملوا بروح من المحبة بعيدة عن البغضاء والشحناء، وعن الاثرة والاناية.

هل فكر أحد منا في ذلك، وعمل عليه في تربية أبنائه؟ أو لسنا في

كثير من الأحيان نستحث أولادنا وبناتنا إلى العمل من طريق بث روح الغيرة والحسد نحو الآخرين ؟ بل من طريق بذر بذور عدم الثقة والكراهة بين الاخوة ، فكم من والد يقول لولده (أنا أحبك أكثر من أخيك - أخوك بظال - كل هذه القطعة ولا تخبر أخاك عنها ، أو أخفها منه) وغير ذلك مما يعود الطفل منذ نعومة أظفاره الأثرة والأنانية ويغرس في نفسه الغيرة والحسد حتى من اخوته .

كذلك كان من نتائج عدم تفكيرنا في طرق معالجة أطفالنا ، أنه بينما يفكر كل منا في رفاة أولاده العادية إذا به يهمل الجهة المعنوية اهمالا تاما ، فلقد كنا في ماض ليس بعيداً نسمع أن الولد لا يصح له أن يجالس أباه ، وأن الزوجة لا تأكل مع زوجها ، وأن الطاعة واجب كل منهما لرب البيت وما درى هؤلاء أنهم كانوا بذلك يغرسون روح الذل والاستبداد في أبنائهم وبناتهم ، ويعطلون فيهم جميع الصفات الضرورية لجعلهم أفراداً أحراراً في مجتمع يحميهم ويعملون هم على رقيه .

حقاً لقد تغيرت تلك الحالة الآن ، ولكن تغيرها كان في الشكل ، أما في الجوهر فلا يزال كثير من الآباء والأمهات يتصورون أن الطفل يجب أن يربى على الأدب والطاعة .

فالأدب في عرفهم : أن يجلس الطفل جلسة مخصوصة ، وألا يتحرك في مجلسه ، وإذا ضرب لا يبكي .

وأما الطاعة فهي أن يتلقى الأوامر فيخضع لها مهما كانت ، وما دروا أن الطفل يحتاج دائماً إلى الحركة ، وأن السكون في الطفولة الأولى علامة المرض والخنول ، وأن من يضرب ولا يبكي فإنما ينشأ ذليلاً حقيراً ، وأن من يحرم حق التفكير لا يمكن أن يكون حراً ، وأن النظام والطاعة

غير الخضوع والخشوع؟ وأن الوالد لو فكر في حق ابنه عليه ما جعله لتفوقه العادى على ذلك الطفل، ولا للنصرة الوقتية التى تأخذه بالاثم إذا ما اعترض الولد على أمر من أوامره أى أثر في تربية ولده . ولكن للأسف تجد الحالة الفكرية في أذهان الناس على الضد من ذلك ، فهم يطلبون من الولد أن يكون أداة طبيعية لهم من غير أن يفكروا لتلك الآثار العميقة في تكوين الطفل وما لها من نتائج بعيدة المدى .

إذ أن من يربى على الخضوع لا يكون عاجزا فقط بل ينقلب طاغية مستبدا إذا ما ولى الأمر بدوره . وإني لا أزال أذكر أنى في المراكز التى شغلتها ، كنت أحتاج إلى كثير من التشجيع حتى يستطيع غالب الموظفين الذين كانوا تحت رياستى أن يبدووا رأيهم بحرية ، لأنه انطبع في أذهان كثير من رؤسائهم أن الاحترام معناه أن يفتن المرءوس فى الرئيس ، وأن الشخص الذى يعارض رأيك لا يمكن أن يكون محلا لرضاك ، وأن طاعة الرئيس معناها شل كل رأى يخالف رأيه ، فلعمري كيف يمكن التعاون والحالة النفسية على ما قدمنا ، بل كيف يرقى مجتمع تلك حالة أفرادها !

ولا أزال أذكر كذلك أنى عندما كنت وزيرا للمعارف لاحظت عدم وجود أداة اتصال بين رجال التعليم ليجثوا في نظم التربية والتعليم ، ويعملوا على ترقيةها وإصلاح ما فيها من العيوب ، ففكرت في إنشاء مجلة لتكوين أداة لتلك الأبحاث ؛ وفعلا دعوت بعض رجال المعارف لمباحثتهم فى الأمر ، فسألنى أحدهم : وهل يكون لتلك المجلة حق نقد النظم الحاضرة ؟ فقلت له : نعم ، لأن سبيل التقدم والرقى هو معرفة عيوب الحاضر ، ولا يمكن أن نصل لذلك بغير النقد ، وما دامت الأبحاث محصورة فى الحدود العلمية والفنية من غير أن تتعدى إلى الأشخاص أو السياسة أو الدين فجالها حر للباحثين ، فأجابنى ، وقد شعر بغرابة وقع سؤاله من نفسى ، بأنه إنما

أراد الاستفسار، لأن الفكرة عرضت في عهد أحد الوزراء الذين تولوا أمر الوزارة قبل بيضع سنين، فاعترض عليها ذلك الوزير وقال: كيف أسمح لرجال التعليم، ومهمتهم الدفاع عن الوزارة ونظمها بنقد نظم التعليم! أيها السادة:

أرجو أن لا يدهشكم هذا القول، فلقد كان الوزير الذي أشير إليه معروفاً بين الناس بالحكمة وحسن التدبير، وهو ممن تركوا في نفوس الكثيرين أثراً طيباً، ولكن الأمور اشتبهت علينا، وتربية الأسرة فينا أضلنا السبيل حتى صرنا لانحس بآثار تلك التربية وما تركته فينا من الخشوع، والرضى بالاستبداد، فالتبس علينا الأمر وصرنا نرى حسناً ما ليس بالحسن.

وثمة نتيجة أخرى من نتائج تلك الحالة في الأسرة، وهي أننا بما يسمعه أطفالنا من أحاديث آبائهم وأهلهم، ومن عرض الخلافات الصغيرة والحقيرة أمامهم ساعدنا على أن نفرس في نفوسهم روح الغيرة الخبيثة والحققد، مما يضعف فيهم روح التعاون والعمل المشترك. ذلك أنه انطبع في الأذهان من أثر الحياة المنزلية، وما نراه فيها من شقاء وبغضاء، التعلق بكثير من سفاسف الأمور، والميل إلى المناظر الوضيعة، وإثارة الحققد الدفين في النفوس، مما جعل الناس ينتقد بعضهم بعضاً بسبب ومن غير سبب، ومما جعل الكثيرين يظنون أنهم لا يستطيعون أن يجعلوا لأنفسهم مكانة أو احتراماً إلا إذا أضعفوا من قيمة غيرهم وشوهوا أعمالهم. فكم سمعنا عن المديرين في الأقاليم، والرؤساء في المصالح، والوزراء في الدواوين: أنهم يجعلون همهم تشويه ما عمله أسلافهم حتى يكون لهم وحدهم الفخر؛ وكم سمعنا عن فشل دب بين جماعات.

أنشئت لتعمل متحدة ، ذلك لأن الأشخاص ربوا على القطيعة والحقدا
فلا يفهمون روح التعاون ، ولست أود أن أذكر أمثلة ما تراد في مصر ،
فليس من موضوعي الليلة أن أتعرض للحياة العامة ، ولكني أذكر أني
كنت في تركيا عام ١٩٢٩ ، وذهبت لمشاهدة مباراة كرة القدم بين الفريق
التركي والفريق المصري ، ولقد كان أفراد الفريق المصري متفوقين على
زملائهم الأتراك ، ولكن للأسف كان الكثيرون منهم إذا أمسك بالكرة
حاول أن يصل بها الى الهدف لينال هو غر الانتصار وحده ،
أما الفريق التركي فكان الواحد منهم يأخذ الكرة فإذا أحس أن هجوما
يدبر ضده مررها الى زميل له ، وهكذا حتى انتهى الأمر بانتصار الفريق
التركي على المصري ، ونالت تركيا غر الانتصار ، مع أن أفرادها كانوا أقل
كفاءة من أفراد الفريق المصري ، ولكنهم عرفوا سراً للنجاح في الحياة
خفي علينا ، ألا وهو أن التعاون يزيد القوى قوة ، ويخلق سبيجا جديدا للنصر .
تعم فائدته الأفراد ، فالطفل عندنا متروك لمحض المصادفة ، فهو أشبه بنبات
الغابة وأحراشها تنمو فوضى لا نظام لها ، ويقتل قوتها ضعيفها ، ويتغلب
خبيثها على طيبها ، ولو شئنا له نجاحا وللا إنسانية فلاحا لتعهدناه كما تعهد
النبات أو الأشجار العثرة التي نحريث لها الأرض ، وتعهدها بالسقيا ، ونظهرها
من الحشرات والنباتات الخبيثة ، ونعمل على تلقيحها بأحسن الثمار وأجود
الأصناف ، ولا شك أن هذا عمل شاق يحتاج إلى النشر والدعاية والمثل
الصالح . وبالجملة إن رمنا فلاحا وحب أن نعني بحالة أولادنا الفكرية
والمعنوية ، كما نعني بحالتهم العادية والصحية .

ولقد شعر كثير من الناس بنتائج تلك الحالة السيئة فأرادوا معالجتها
هن طريق معاملة أولادهم معاملة طيبة ، وغرس روح الاستقلال فيهم ،

ولكن تغلبت فيهم روح الزهو فنظروا الأولادهم، لا نظرة الأمين على قلعة كبد، بل نظرة الفاخر بجمال ولده. ولذلك أسرفوا في طريقة لباسهم. فكم من الأطفال عندنا يلبسون الحرير والملايس الثمينة، بينما ثروة الوالدين لا تسمح بشيء من ذلك، وكم من الأمهات يباهين بأن ابنهن يلبس أحسن من لبس ابن فلان الثرى، وكم منهم بلغ بهن الزهو أن لا يشتري ملابس الأولاد إلا من أوربا، غير عابئات بالآثر السيء الذى ينطبع فى ذهن الطفل فيركز اهتمامه فى تلك الناحية، حتى اذا ما شب وجد والديه غير قادرين على أن يحفظا له من النعيم ما عوداه آياه فى نشأته الأولى، فيقع الخلاف فى الأسرة ويغلو الولد فى طلباته، وهكذا تكون الأسرة ضحية صراع داخلى، وفريسة تبذير ينتهى بخرابها.

ومن الأسف ان هذا الضعف قد ينشأ بطرق شتى خصوصا فى تربية البنات، فإن كثيرا من السيدات يضعن مسألة الزى فى المرتبة الأولى من تفكيرهن، ولا يحسبن لثروتهن أو ثروة أزواجهن أى حساب، فتنشأ البنت فى هذا الوسط ضعيفة مبذرة، لا تستطيع أن تقوم بتواجها نحو منزلها ولا نحو أولادها، وترى الثروة التى لديها قليلة حتى ولو كانت واسعة، لأنها لا تستطيع لنفسها تديرا، وبذلك ينتقل الآباء من خطأ الى خطأ آخر. ذلك أن معالجة أمور الطفل من أدق المسائل وأعقدها، وهى أجدرها بالعناية والاهتمام، ولا يصح للإنسان أن يأخذ برأى من غير أن يقلب الأمور على جميع وجوها، وأن يبحث عن ذوى الرأى والتجربة للاسترشاد بهم فى معالجتها، مع ذلك فلا يظن انسان ان التربية والنشئة هما كل شيء، فان للطبيعة نفسها ولميراث الطفل من الأجيال العدة التى تركزت فيه أثرا فعالا فى تكوينه، فنحن بصناعتنا انما نساعد الطبيعة أو نعد لها، ولكننا لا نستطيع أن نخلقها خلقا جديدا، وما الأسرة إلا صورة مصغرة

للمجتمع الذي نعيش فيه ، فإذا رما لهذا المجتمع صلاحا وجب أن نبداً بالأسرة أولاً ، فإذا صلحت الأسرة عملت على اصلاح المجتمع .
والآن وقد عرضت لأحد عوامل الضعف في تكوين الأسرة للفرد
انتقل الى عامل من عوامل الضعف في تكوين الفرد في المدرسة .

كاننا نسمع الشكوى المرة من حالة التعليم ، ونسمع الصرخة العالية ضد نشر التعليم في الأرياف ، لأنه يحول بين المتعلمين والغيث ، فالولد الذي يدخل المكتب أو الكتاب يرفض بعد ذلك أن يتولى عملاً من أعمال الزراعة ، وكثيراً ما نقرأ في الجرائد عن العاطلين من حملة الشهادات وما يجب لهم من التشجيع ، ونقرأ الاقتراح تلو الاقتراح عن وسائل تفرج تلك الأزمة وما يجب على الحكومة إزاءها ، وبعد أن كان الناس يقدسون العلم ويرونه خطوة نحو الكمال في الإنسانية أصبحوا الآن يشكّون في فائدته . ويرونه خطراً على المجتمع الإنساني ، وشيئاً يجب أن نحاط من تناوله إلا بالقدر الضروري ، وبعد أن كان الشك في فائدة العلم مقصوراً على طبقة الجهلة من الناس أصبح حديث الجميع ، ففي أرقى المجالس العلمية تسمع كثيراً من الناس يقولون بوجود حصر التعليم حتى لا تزداد طبقة المتعلمين الذين لا يجدون وظائف في المجتمع فينقلون خطراً عليه ، ويكونون أداة اضطراب في البلاد .

وإذا ناقشت هؤلاء القائلين أجابوك على الفور : ألا ترى كيف ان حملة الشهادات أصبحوا عالة على الأمة ؟ ألا تراهم في كل يوم يأتون إليك طالبين وظائف حكومية ؟ وكيف يكون الحال إذا نحن ظللنا مستمرين في تلك السياسة ؟ أليس الأجدر بنا أن نعترف بالامر الواقع ، ونواجه الحقائق كما هي ، ونترك الأفكار النظرية لنكون عمليين ، ونندراً خطر الفوضى عن البلاد قبل استفحال الخطب ؟

فهل حقيقة ان الأمور انقلبت رأساً على عقب الى هذا الحد؟ وهل أصبح العلم الذى كنا نفاخر به، وكنا نباهى بالحكمة الجارية: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»، و«اطلبوا العلم ولو فى الصين»، أصبحت خرافة من الخرافات!

لا يأسادة! لم تنقلب الحقائق، ولكن أربنا حالة شاذة، ورأينا اضطراباً فى المجتمع كان مظهره حملة الشهادات ومتخرجو المدارس ودور العلم، فربطنا ظاهرتين إحداهما بالأخرى، وضل بنا المنطق، فاعتقدنا بأن الخطر ناشئ من العلم، وناديننا بوجوب الحد منه بتقليل عدد طلابه، ولكننا لحسن الحظ قومنا بذلك المذهب كل الإيمان، فليس منا من يرضى بأن يعمل بتلك النظرية بالنسبة لأولاده، وإذا طبقت على أحدهم كان أول ساع إلى المطالبة بالاستثناء الملح فى الدفاع عن وجوب فتح أبواب التعليم للجميع الناس والاضطروا أن يرسلوا أولادهم لأوربا فالحمد لله الذى جعل غريزة الدفاع عن النفس أقوى الغرائز. فهى تغلب على جميع النظريات، وكثيراً ما تصل من طريقها إلى الحل الصحيح غير عابثة بما ينسجه المتفلسفون من النظريات، وما ينادى به السفسطائيون من المبادئ.

فالحق أيها السادة أن العلم لا يزال هو هو، له من القداسة ما كان له فى الماضى، ولكن نظم التعليم والمدرسة عندنا فيها من العيوب ما جعلنا نشعر بتلك الأزمة الشديدة التى نشكوا منها اليوم، فضل كثير من الباحثين ونسبوا إلى العلم ما هو راجع إلى نظم التعليم والمدرسة، فليس يحتاج إلى دليل أو برهان أن العلم زيادة فى المعرفة. وإذا زادت معرفة الإنسان كان أقدر على مكافحة الحياة، وأكفاً على استثمارها واستدراخ خيراتها، فإذا ظهر لنا خطر من حالة من نسميهم متعلمين فإنما يكون ذلك لعيب فى تعليمهم، وضلال فى طريقة نشأتهم. فالتعليم الأولى والابتدائي

بل والثانوى لا يمنع الولد من ممارسة أى عمل من الأعمال البدنية في أوربا، بل يزيده استعدادا للعمل ويفتح له مجالا من التقدم فيه أكثر من غيره. أما نحن فبمجرد أن يصل الولد إلى الشهادة يعتبر نفسه كفئا لتولى وظيفة حكومية، ولا يرضى بمزاولة عمل أبيه من تجارة أو برادة أو طهى أو غير ذلك، فما السر في هذا؟ لقد استعرضت أمامى عوامل عدة لتلك الحالة، منها أن المتعلمين عندنا لا يزالون قليلى العدد، فمن تعلم منا يعتبر نفسه انتقل إلى طبقة ارسقراطية تعطيه حقوقا أكبر من حقوق زميله الأوروبى. تفسير له وجاهته، ولكن كيف لم تستطع الأزيمة الشديدة التى مررنا بها أن تخفف من غلواء هؤلاء الناس؟ بل كيف لا يغير تلك الحالة ما نرى عليه حملة الشهادات من الفقر والعوز! الجواب على ذلك أن هذا كان من شأنه أن يغير تلك الحالة تماما، لولا أن لدينا فى تعليمنا عنصرا يبدو ظاهره بسيطا، ولكنه فى الواقع عميق الأثر فى نفسيتنا وطريقة تفكيرنا. ذلك العنصر هو اللباس الذى يرتديه الصبية فى المدارس. فلقد قضى النظام المتبع عندنا فى المدارس الابتدائية أن يلبس الولد الملابس الأفرنجية، فهو منذ صغره يلبس لباسا مخالفا تمام المخالفة للباس والديه. فثبت فى ذهن الوالد، بل وفى ذهن والديه، أنه صار من طبقة غير طبقتهم، فهو من الحكام، وأهله من المحكومين، فلا يصح له منذ تلك الساعة أن يعمل عملهم. ولا أن يساعدهم فى مهنتهم، فهو لن يكون نجارا ولا برادا ولا طاهيا، بل ولا يصح له أن يكون ناظر زراعة ولا بائعا ولا تاجرا. يجب أن يكون «افندى» فى الديوان! هذا هو السر فى تلك الأزيمة المروعة، وفى أن المتعلمين من الأوربيين يقبلون تلك المهن ويباشرونها بأنفسهم، وقد يتدرجون فيها إلى أن يكونوا أصحاب ثروة وجاه عريض. أما نحن فلا نتولاها ولا نصل فيها إلى درجة ما، ذلك أنهم لا يأنفون العمل مهما

كان نوعه ، بل يحبونه ويحترمونه ويباهون به ، اما نحن فنراه مرتبة . أقل من مرتبة المتعلم .

ولقد شعر بعض رجال التعليم بهذا الضرر في المدارس الابتدائية وتلافوا جزءا منه في الكتابات ، ولكن تصرفهم ظل ناقصا فلم يقض على الشعور في نفس الطفل ، فظل ولد الكتاب مخالفا لآبيه ، وأنف من المزرعة التي يعمل فيها والده عارى القدمين ، معرضا للطين والتراب يلوث ملابسه وجسده . اما علاج تلك الحالة فهو ان يكون المكتتب صورة لحياة الولد المنزلية بحيث لا تخرجه عن حالة البيئة التي يؤهل للعمل فيها ، وبهذا العلاج تمنع الفوضى الفكرية التي تلازم الآن كل من دخل المكتتب . اما في المدرسة فيجب ان يلبس الصبية لباسا بسيطا متينا . ومن الغريب ان مدارس البنات حتى ارقاها من المدارس المصرية والاوربية هنا تنحو هذا النحو ، فتلبس البنات جميعهن سراويل من نوع واحد مصنوعة من نسج قليل الثمن . اما الأولاد فيلبسون أربطة الرقبة الحريرية ، والأقشعة الغالية الدقيقة الصنع ، والأحذية الرشيقة القد . فهاذا أيها السادة ! وكيف نتظر لهذا الولد أن ينشأ رجلا قويا يشتغل بساعديه ولا يبالى بمجهود الرجال الجثماني .

نشأ الأولاد تلك النشأة ، وسترون منهم رجالا يحبون العمل وينهضون به ويفاخرون بنجاحهم فيه ، فيكونون ملوك الصناعة والزراعة والتجارة ، كما هو الحال في اوربا وامريكا . اما تلك العيشة الناعمة فليست من شأن الرجال الناهضين .

جربوا هذا وقدروا تأثيره الأدبي والنفسي في الأطفال وذويهم ، ثم قدروا ما يدره من الخير على تلك الطبقة المتوسطة من الأمة التي رزقت من الصفات الخلقية ، ومن حب العمل والاجتهاد والمثابرة ما نغبط له

أشد الإغباط ، بما يقلل من تكاليف أولادهم ، وبما يجعلهم يستطيعون الاقتصاد في معيشتهم . لأن تربية أولادهم تصبح في متناول أيديهم ، فينشئونهم نشأة صالحة تزول معها أسباب كثيرة من الخلاف الذي يترتب على كون الآباء غير قادرين على إجابة أطماع أولادهم في الملابس والمعيشة ، لأن المناظرة فيها ستزول لا رتداء الأولاد جميعا رداء واحدا . هذه ناحية من نواحي الضعف في المدرسة .

وهناك ناحية أخرى ترتبط بها ، إذ أننا كما نسمع الشكوى عالية من أصحاب الشهادات ، كذلك نسمع الشكوى عالية من جانب الجامعة ورجال التعليم العالي من أن مستوى الثقافة في الشهادة الثانوية أقل مما يؤهل للدراسات العالية ، ولذلك طالب الكثيرون بقصر من يدخلون المدارس العالية على عدد محدد ، أو نسبة مخصوصة من النجاح في الشهادة الثانوية . ونحن من جهة أخرى نسمع صيحة داوية لآباء الشبان الحائزين للشهادة الثانوية الذين لم يقبلوا في المدارس العالية قائلين لنا : ما ذا نعمل بأبنائنا وقد وصلوا إلى درجة من العلم هي بإقراركم كافية لتدرجهم في التعليم العالي ؟ وبين هذين الرأيين ترى وزارة المعارف تتذبذب في تطبيق المبادئ ، فهي طوراً مع الفريق الأول ، وطوراً مع الفريق الثاني ، فإذا ما اتبعت الرأي الأول كثر عدد العاطلين ، وإذا ما اتبعت الرأي الثاني انحط مستوى التعليم ، ونال الشهادات العالية من ليسوا أهلاً لتولى الأعمال التي يجب أن يؤهل لها ذلك النوع من التعليم ، فإذا لم يجدوا عملاً صرخوا هم بدورهم صرخة طلاب « البكالوريا » الذين لم يجدوا محلاً في المدرسة ، وبذلك تكون الأزمة انتقلت من حائزى الشهادة الثانوية إلى طلاب الشهادات العالية أو حائزىها .

ولو أننا واجهنا الأمور على حقيقتها لكان علاجها يسيراً ، ذلك أننا نرى

أن المدارس العالية تشترط نسبة للنجاح هي ٦٠ في المائة ، بينما يمر الطالب في الشهادة الثانوية إذا جاز الامتحان بنسبة ٤٠ في المائة ، والبون شاسع بين الدرجتين في التحصيل ، ومن الواجب أن يكون الطالب في الشهادة الثانوية مؤهلاً حقيقة للدراسة العالية ، وأن تكون مقدرته على التحصيل قريبة من الدرجة المطلوبة للدراسة العالية ، وبذلك يزول الإيهام الموجود في النظام الحاضر ، ويرى الآباء والأبناء ميزانا صحيحا يمكن أن يقيسوا به استعداد الأبناء ، ويكون الحاصلون على الشهادة الثانوية قادرين على الاستمرار في الدراسة العالية ، ويحق لهم حينذاك أن يطالبوا وزارة المعارف بأن تعمل على إيجاد الأمكنة الكافية لجميع المتعلمين الذين وصلوا إلى درجة معينة لمتابعة دراستهم العالية . وسيتهى الخطر الحاضر ، لأن العدد سيقصر بمجرد تطبيق هذا النظام على من يكونون صالحين حقا لتلقى التعليم العالي ، والذين تؤهلهم كفاءاتهم للأعمال المنتجة بعد ذلك ، وهذا الذي أريده في الدراسة العالية هو نفسه الذي يرشدني إلى الحل الصحيح في بعض مشكلة الدراسة الثانوية . فشهادة الكفاءة ، أو شهادة الدراسة الثانوية قسم أول ، يجب أن تكون على درجتين ، إحداهما تعد للدراسة الثانوية فاعالية ، وبالتالي تعد لمستوى الثقافة والتعليم النظري والعمل العالي ، والأخرى تعد للمدارس الصناعية والزراعية والتجارية المتوسطة .

أما الشهادة الابتدائية ، فلعمري لست أدري ما هو المبرر لبقائها ، سوى تحميل الوزارة والمدرسين والممتحنين عبئها ، وتضييعهم الوقت على غير جدوى لإجراء امتحاناتها .

وهذا فضلا عما هو ثابت في أذهان الناس جميعا من أن الشهادة تؤهل صاحبها لعمل ، وتعطيه حقا على الدولة والمجتمع ، فمن حاز شهادة

رأى لنفسه هذا الحق ، وتركز في ذهنه المطالبة بمستوى معين من الوظائف والأعمال ، فما الداعي لبقاء تلك الحالة سوى مساعدة العوامل التي تتعاون على اشتداد الأزمة وخلق طبقة غير القانعين في البلاد ؟

لذلك نرى علجا لتلك الحالة أن تكون المرحلة الأولى هي شهادة الكفاءة ، على أن يجعل الناجحون فيها فريقين ، الفريق الممتاز الذي يكون قد برهن على استعداد لمتابعة الدراسة الثانوية فإلى عالية ، والفريق الأقل استعدادا الذي يصلح لمتابعة دراسته في المدارس الصناعية والزراعية وغيرها . وإذا نحن جعلنا الوسط المعاشي في المدارس الابتدائية إلى الكفاءة على ما قدمنا ، فإن الأولاد لا يتفرون عند ذلك من مزاولة مهنة آبائهم وأهليهم ، وبذلك نساعد على إيجاد طبقة نالت حظا من التعليم تعمل بنشاط على رقي البلاد الصناعي والزراعي ، وتتلافى أزمة من أشد الأزمات التي تهددنا في مستقبلنا ، ونغرس في نفوس الأمة وشببتها : أن العمل وحده عصب الحياة ومفخرتها .

العيد الذهبي لدار العلوم

سنة ١٩٢٧

سننشر ابتداء من العدد الأول للسنة الثانية ، وصف الاحتفال الباهر الذي احتفاته دار العلوم لعيدها الذهبي في يولييه سنة ١٩٢٧ وكذلك نصوص الخطب والقصائد التي أُلقيت في ذلك المهرجان العظيم .

وبعد استيفاء نشرها جميعها سيجمع كل ذلك في الكتاب الذهبي .